بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد ، فإن القرآن الكريم كنز لا ينفد ، وبحر لا ينضب من المعارف المتنوعة ، بما حبه الله – جل ثناؤه – من فضل وإعجاز .

ومنذ نزوله على رسوله الكريم والناس لا يكفون عن النظر فيه ، والتأمل العميق فى ألفاظه وتراكيبه ودلالاته ، فلقد فسروا آياته ، وعللوا إعجازه وسر تفوقه ، واستنبطوا الأحكام الفقهية بعد أن وضع لهم معالم العقيدة الصحيحة .

والقرآن الكريم أنقى النصوص الأدبية التى بين أيدينا وأضبطها وأصحها ، فلقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه وبقائه دون تحريف أو ضياع ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1] وهو حق ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾[2] .

وقد تحدى القرآن العرب وغيرهم فى أن يأتوا بمثله ، وأكد أنهم غير قادرين على ذلك مجتمعين أو فرادى ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[3] .

وقد وجد المسلمون الأوائل أنهم مطالبون ببيان وجوه التفوق وسر الإعجاز فى القرآن الكريم بعد أن اختلطت الأجناس وامتزجت الشعوب فى المجتمع الإسلامى ، وحمل كلٌ تراثه الثقافى ، وتعددت الفرق ، ونشأ الحوار والجدل بينها ، كما شعر المسلمون الأوائل بالغيرة على كتابهم العزيز عندما رأوا ما صنعه البراهمة فى كتابهم (الفيدا) ، فلقد عكفوا

---

(١) سورة الحجر : آية ٩ .
(٢) سورة فصلت : آية ٤٢ .
(٣) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

عليه لدراسته ولبيان وجوه إعجازه وتفوقه ، فأحسوا بالتقصير الشديد نحو الكتاب المنزل من السماء بحق على رسولهم الصادق الأمين .

ولقد كثرت وجوه الإعجاز القرآنى ، وتعددت بتعدد القائمين على إعجازه وكثرة بيئاتهم وثقافتهم ، حيث أخذ كل فريق فى بيان الوجه الذى يعنيه من القرآن الكريم ، ولذلك نجدهم قد ردوا إعجازه تارة إلى بلاغته ، وتارة أخرى إلى إخباره بأحداث المستقبل ، وتارة ثالثة إلى ما تضمنه من أخبار عن الأمم البائدة كعاد وثمود ، كما نظر جماعة فى العصر الحديث إلى ما فى القرآن الكريم من حقائق علمية وطبية أكدت صحتها وصدقها العلوم التجريبية الحديثة ، إلى غير ذلك من جهود المسلمين فى الماضى والحاضر .

والقرآن الكريم بين أيدينا وفى قلوبنا ، ونحن مدعوون إلى تلاوته وفهمه وتأمل معانيه والنظر فى تراكيبه وألفاظه ، وبقدر ما لدينا من عقل قادر على الإدراك . وثقافة معينة عليه وموجهة له .

ولا شك أن نتائج العلوم التجريبية والبحتة والإنسانية فى عصرنا قد تنوعت وكثرت ، وصار تراكمها فى عقد أو عقدين يفوق ذلك التراكم الذى كان يحدث خلال قرن أو قرنين على الأقل . فمعطيات عصرنا العلمية والثقافية تعيننا على النظر والتأمل فى التراثين الدينى والأدبى ، وتؤهلنا لخدمة ذلك التراث ، وكشف جوانب من تفوقه وعبقريته .

ولا يعنى هذا التخلى عن جهود العلماء الأوائل ، أو نقضها ، أو محاولة التقليل من شأنها ، بل القصد والهدف هو إضافة شىء جديد إليها ، أو السير خطوة أخرى فى مسيرة الكمال ، وهذا يؤكد أن أى خطوة للبناء يجب أن تقوم على أساس قديم متين .

ومن الثابت المعلوم أيضا أن جهود العلماء فى الجوانب الإنسانية يكمل بعضها الآخر ، على خلاف ما يجرى فى العلوم التجريبية التى يكثر فيها هدم الجديد للقديم ، وتقويضه والانصراف عنه .

ونحن نرى أن دراستنا لبعض النصوص القرآنية بهذا النهج وذلك التصور تنتظم فى هذا السلك ، وتتآلف مع حبات تلك القلادة .

إن النصوص القرآنية كلها تدعونا إلى النظر والتأمل فى تراكيبها ومعانيها ، لما فيها من عمق وتفوق ، وهى ليست أنماطا متكررة تعرف ويحاط بها كلها عندما تسبر أغوار بعضها ، بل لكل منها ما يختص به ، وما يحتفظ بجوانب التفوق والتفرد فيه ، فالقرآن الكريم كله فصيح وبليغ ، لكن بعضه أفصح من بعض ، كما أن بعضه يتفوق فى البلاغة

على بعضه ، على حسب المقامات والأحوال ، وعلى أقدار المخاطبين المتباينين فى أذواقهم وفهمهم وعقائدهم وثقافتهم .

لذلك يجب أن يعرف لكل قدره ، وتدرك خباياه وجوانبه المكنونة ، وكنوزه التى يجب الكشف عنها .

وقد أراد الله لنا أن يوجهنا إلى النظر والتأمل فى سورة طه ، وأن يدفعنا ويعيننا على دراسة ما فيها من قيم معرفية وجمالية .

مرجحات اختيار سورة طه

لا يعنى اختيارنا لسورة طه ودراستها أنها تتفوق على غيرها من السور القرآنية ، فلكل سور: ما يجعلها نسيجا فريدا مستقلا ، وما يجعلها ذات خصائص متفوقة ، وقد تشارك بعض السور سورا أخرى فى خصائص مشتركة لكن سماتها الخاصة تظل قائمة وبارزة .

وسورة طه كغيرها من سور القرآن لها سماتها المتميزة ونسيجها المتفرد ، وقد هدانا الله إلى دراستها ودفعنى إليها ، وأظهر لى فيها عدة مرجحات شدتنى إليها :

أولها :

أنها حافلة بالتراكم المعرفى الكبير المتنوع الذى يقف الإنسان أمامه موقف المتعلم المتلقى .وهى معارف لا حدود لها ، ولا إحاطة للمخلوقات بها ، فمنها علم الله الذى لا يحيط به مخلوق ، وقد أخفى الله بعضه عن الملائكة ، وبعض منه قد أحاط به آدم ، كما علّم الله موسى جانبا من هذا الفضل ، وكلها قطرات قليلة من بحر علمه الزاخر ، كما تتضمن السورة حدود علم السحرة ، وفرعون ، وإبليس ، والسامرى ، وقوم موسى . وجملة تلك المعارف المتعلقة بالمخلوقين لها حدودها التى تقف عندها ، كما أن أكثرها لايقوم على اليقين الثابت ، والعلم اليقينى منها هو ما أوحى به الله وتلقته المخلوقات عنه .

ثانيها :

ان السورة تضم جوانب فنية رفيعة تقررها النظريات الأدبية المعاصرة ، كما تتمثل فيها ظواهر مختلفة للدلالات ، أو أدوات متنوعة للبيان ، وهى ظواهر قد انتظمت فى علوم حديثة ، مثل علم الرموز أو العلامات . وعلم اللغة ، كما تنتظم السورة فى إيقاع صوتى

فريد ، تكشف عنه الدراسات الصوتية الحديثة ، كما لا تستغنى الدراسة عن النظريات الأسلوبية المعاصرة ، وعن نتائج الدراسات الاجتماعية والنفسية والتاريخية .

ثالثها :

أنه تصور تفانى الأنبياء وإخلاصهم فى تبليغ رسالاتهم ، وما يلاقيه هؤلاء الأنبياء من آلام وجهالات من قومهم ، كما تؤكد السورة أن الله سبحانه يؤيد رسله ولا يتخلى عن نصرتهم على الكافرين .

وقد تجلى ذلك فى قصة موسى عليه السلام ، وما لقيه من فرعون وقومه ، كما تجلى ذلك أيضا فى الآلام التى تعرض لها محمد رسول الله ﷺ ، والسورة فى مجملها تخفيف من آلام النبى ﷺ .

والاقتداء بالرسل عامة ونبينا الكريم بخاصة – ترياق لادواء العصر الذى نعيشه الآن وهناك دوافع خاصة لا مجال لذكرها هنا .

ومن الطبيعى أن أهمية أية دراسة تقاس ويعرف قدرها بما تتضمنه من جدة ونتائج مخالفة أو مكملة لما سبقتها . فليس فى خطتنا أن نعرض ما قاله قدماء المفسرين مثلا ، أو غيرهم ممن أسهموا بوفرة فى ميدان الدراسات القرآنية ، وإنما نرجو لدراستنا هذه أن تخطو خطوة أخرى بعد جهود الأئمة الأوائل ، وهى دراسة تعتمد كلام السابقين ، وتعده الأساس الذى تنطلق منه ، وهى كما أشرنا تحاول أن تنتفع بنتائج الدراسات والعلوم الحديثة ، بقدر ما يتاح لنا ، وهذا مسلك المجتهدين الذين يرجون بعملهم أن ينال الأجرين ، أجر الاجتهاد وأجر الإصابة .

وسورة طه : تتألف من ١٣٥ آية ، و ١٣٤١ كلمة ، وكل آياتها مكية ، ما عدا آيتين هما الآية ١٣٠ ، والآية ١٣١ فهما مدنيتان عند جمهور المفسرين ، وفى المصاحف التى بين أيدينا .

ويرى الفيروزابادى أنها مكية كلها [١] . فالسورة فى مجملها مكية النزول ، وقد جاء ترتيبها الزمنى بعد سورة مريم كما تشير رءوس السور فى المصاحف .

ومما يؤكد ذلك أن الرسول ﷺ كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى وكان ذلك بعد البعثة وبعد فرض الصلاة ، وقد فرضت الصلاة على المسلمين بعد ليلة الإسراء والمعراج .

---

(١) انظر كتاب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادى ص٣٠ .

وقد نزلت سورة طه ومطلعها يتضمن أمرا بالتخفيف عن الرسول الله ﷺ ، وذلك كما يقول ابن عباس[١] .

ويرى الفيروزابادى أن للسورة اسمين ، الأول منهما هو سورة طه لافتتاحها به ، والثانى سورة موسى لأنها تشتمل على قصته[٢] .

أما أسباب نزول هذه السورة فقد اختلف فيها ، ومع وجود هذا الاختلاف الظاهرى بينها فهى تؤدى إلى غاية واحدة ، فيذكر أبو الحسن بن على بن أحمد الواحدى النيسابورى (متوفى سنة ٤٦٨ هـ) فيما رواه عن مقاتل أن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا للنبى ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا لما رأياه من عبادته واجتهاده ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ..﴾[٣] .

ويورد السيوطى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الرسول الله ﷺ كان أول ما أنزل عليه الوحى يقوم على صدور قدميه إذا صلى ، فأنزل الله ﴿طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[٤] .

وروى عبد الله بن حُمَيْد عن الربيع بن أنس قال : كان الرسول الله ﷺ يرواح بين قدميه فيقوم على كل رجل حتى نزلت : ﴿طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[٥] .

وهذه الأقوال أو الأسباب تجتمع كلها لتحقيق غاية واحدة هى التخفيف عن رسول الله ﷺ ، سواء كان الغرض من الأمر تخفيف آلام القدمين بسبب الوقوف على أحدهما أو كليهما للصلاة بالليل ، أو كان للتخفيف عنه ﷺ لما كثرت جهالات قومه وتعذيبهم له وللمسلمين ، ومحاصرتهم فى أرزاقهم وحرياتهم ، والتخفيف عن رسول الله ﷺ فى الحالة الأولى بوطء الأرض بالقدمين معا ، وتقليل صلوات النوافل ليلا ، أما التخفيف عنه فى احالة الثانية فهو بإخباره ﷺ بما لاقاه الأنبياء من قبل ، كما حدث لموسى عليه

---

(١) انظر النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٤٨ط . الثانية مصطفى البابى الحلبى .

(٢) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ص ٣٠ .

(٣) انظر أسباب النزول للواحدى ص ٢٠٥٠ الناشر مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع – القاهرة ١٩٦٨م – ١٣٨٨ .

(٤) انظر النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٤٨ .

(٥) انظر النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٤٨ .

السلام ، وما تحملوه من أذى الكفار ، والله سبحانه يؤازر رسله ولا يتخلى عنهم ، مما ثبت به فؤاد رسول الله ﷺ ، وجعل المؤمنين به والمصدقين برسالته أكثر صبرا ويقينا بالله ، وأن نصره وتأييده آتٍ لا ريب فيه .